تاريخ العرب فى آفريقيـــا

سـبيل للتقارب أم للتبـاعد

للدكتور
جمال زكريا قاسم

على الرغم مما حظى به التاريخ الافريقى من دراسات هامة أســهم فى اعدادها كثير من الباحثين الا أن ما يؤخذ على معظم هذه الدراســات عدم توجيهها عناية كبيرة الى وضع التــاريخ الافريقى فى اطاره المنهجى السليم اذ كثيرا ما تأثرت مناهج أولئك الباحثين بأهدافهم المرتجاة عنـدما يتعرضون لأحد موضوعات ذلك التاريخ حيث يجمعون الحقائق التى تتناسب مع تلك الأهداف ويطرحون جانبا ما يتعارض معها .

ولعلنا نلحظ فى تأملنا للدراسات التى عنيت بتاريخ افريقيا وجهات نظر متباينة فيما يتعلق بذلك التاريخ تبرز من بينها وجهة النظر الاستعمارية التى تبدو واضحة فى كثير من المصادر التاريخية التى وضعت خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر وحتى النصف الأول من القرن الحالى . ورغم القيمة العلمية الكبيرة التى حظيت بها تلك المصادر الا أنها لم تخــرج فى غالبيتها عن دراسة استعمار وتقسيم افريقيا بين الدول الأوربية أو دراسة الانظمة الاستعمارية التى طبقتها تلك الدول فى المناطق التى خضعت لها ، ولذلك فان النقد الرئيسى الذى يوجه الى تلك المصادر يقوم على عــــدم اهتمامها بتاريخ افريقيا قبل الفترة الاستعمارية بل وتجاهلها المتعمد فى كثير من الأحيان لمــا كان يوجد فى افريقيا من ممالك عربية افريقية أو بأن ماواجهته القوى الاستعمارية من مقاومة كان دليلا على وجود القوى المنظمة فى القارة الافريقية قبل مجىء الاستعمار الأوروبى .

والى جانب وجهة النظر الاستعمارية تبرز وجهة النظر الافريقية التى تتضح فى الكثير من الكتابات التى وضعت عن افريقيا خلال مرحلتى التحرر الوطنى والاستقلال وغالبيتها كانت تعنى بابراز الشخصية الافريقية ومحاولة تعميق انتمائها فى جذور التاريخ الافريقى ومع ذلك فقد تلاقت وجهة النظر الافريقية فى هذه المرحلة — من تلاحم حركات التحرر العربى الافريقى — مع وجهة النظر العربية حتى وصل الأمر فى مؤتمر اكرا عام ١٩٥٨ — وهو اول مؤتمر للدول الافريقية المستقلة — الى الدعوة لاعادة كتابة تاريخ افريقيا وتحمس كوامى نكروما رئيس جمهورية غانا بصفة خاصة لهذا الاتجـــاه كما رصدت حكومته فى عام ١٩٦٢ الاعتمادات المالية لاصدار موســـوعة افريقية خططت على أساس تعميق المفهوم الشامل لافريقيـــا وجعلت من الثقافة العربية جزءا لا يتجزأ من تراث القارة الافريقية ثم تحولت فـكرة الموسوعة الى كتابة تاريخ الشخصيات الافريقية البارزة بعد وفاة نكروما وعبد الناصر . غير أن تلك النظرة المتلاحمة بين العرب والافريقيين لم تلبث أن حادت عن طريقها حيث بدانا نطالع العديد من الأدبيات الافريقية المتأثرة بالنزعة الاستعمارية التى نجد فيها تشويها واضحا لتاريخ العرب فى افريقيا يضاف الى ذلك ما عمدت اليه كثير من الدراسات الاستعمارية الى استغلال سلبيات تاريخ العرب فى افريقيا بطريقة طغت على كل ايجابياته ولذا لم يكن من الغريب أن ينظر الافريقيون والعرب الى بعضهم البعض من خلال امين استعمارية . وترتب على ذلك أن أصبح تاريخ العرب فى افريقيا عبئا على صانعى السياسة المحدثين وعلى دعاة التعاون العربى الافريقى بســـبب ما ألقى فى طرقات ذلك التاريخ من شوائب استغلت استغلالا متعمدا لفصم العلاقات بين العرب والأفارقة تلك العلاقات التى برزت بصفة خاصة خلال حقبة السبعينيات والثمانينيات من ذلك القرن . ومن ثم كانت عنايتنا فى كثير من المؤتمرات والندوات العلمية التى أتيحت لنا فرصة المشاركة فيها خلال هذه الفترة والخاصة بالتعاون العربى الافريقى أو بالعلاقات العربية الافريقية بصفة عامة الى التأكيد بأن أى قرار سياسى أو اقتصادى لن تكون له أدنى فاعلية ما لم يرتكز على قاعدة صلبة تجعل من التجربة التاريخية التى مـــر بها العرب والافريقيون مجالا للتفاهم فيما بينهم غير اننا لا نعنى بطبيعة الحال استغلال بعض الحقائق التاريخية وتجاهل بعضها وانما ابرازها جميعـــا بمنهج موضوعى تتضح فيه السلبيات فتعالج وتستبين فيه الايجابيات فتدعم

ولعل ما كان يدفعنا الى الالحاح فى تأكيد تلك الدعوة قناعتنا بأن تاريخ العرب فى افريقيا لم يوضع فى اطاره المنهجى السليم ولا يزال فى حاجة الى جهود مكثفة من الباحثين عربا وافارقة خاصة فى الوقت الذى تكالبت فيه قوى الاستعمار الجديد وبعض بقايا الاستعمار القديم للنيل من التراث العربى الافريقى والذى وصل فيه الأمر الى حد توجيه العديد من الدراسات التى تستهدف فصم الروابط التاريخية بين العرب والأفارقة . وفى مقابل ذلك قد تكون السنوات الأخيرة قد شهدت ظهور بعض الدراسات العربية التى حاولت تعميق الروابط العربية الافريقية وتأصيلها تاريخيا الا أن ما يؤخذ على كثير من هذه الدراسات التحيز الواضح للوجود العربى فى افريقيا والتركيز على جوانبه الايجابية فحسب بل تحمس بعض الدارسين لقوة التفاعل العربى الأفريقى الى الدرجة التى وصلوا بها الى حد الاعتراض على استخدام مصطلحى عرب وافارقة فى القارة الافريقية على أساس أنه لا توجد افريقيا دون عرب كما أنه ليس للعرب وجود مستقل عن القارة الافريقية . واستند أولئك الدارسون فى تدعيم نظريتهم الخاصة بالتفاعل العربى الافريقى الى الدرجة التى وصلوا بها الى حد الاعتراض على الشعوب الى الجزيرة العربية ليس فى شرق افريقيا وحدها وانما فى غرب افريقيا أيضا كما أن اللغة العربية استخدمت كلغة ثقافة لدى كثير من الشعوب الافريقية وبذلك أمكن القول بتفاعل الرباطات اللغوية والثقافية والحضارية بين العرب والأفارقة فضلا عن عدم وجود خصائص سلالية تفصل فيما بينهم وفيما يبدو أن جانبا من هذا الاتجاه كان فى ذهن منظمى هذه الندوة ولذلك عمدوا الى تغيير عنوانها الى العرب فى افريقيا بدلا من العرب وافريقيا وهى التسمية التى أعلن عنها قبل ذلك بعامين .

واذا سلمنا بالنماذج اللغوى والثقافى والسلالى بين العرب والأفارقة فان ذلك التسليم يكون فى حد ذاته كافيا لهدم النظرية التى تستهدف تقسيم افريقيا الى شمال الصحراء وجنوبها والتى تعتمد على انكار تلك الأسس جميعها ومع ذلك فاذا كان دعاة التقسيم يجدون مجالا للجدل فى عمليات التفاعل الحضارى والثقافى والسلالى بين العرب والأفارقة فان موقفهم سيتضاءل تماما اذا ما أخذنا بالمنظور السياسى الذى يتضح فى التداخل بين العالمين العربى والافريقى فهناك تسع دول عربية تقع فى القارة الافريقية

يجمع مواطنوها بين هويتهم العربية والافريقية أو اذا ما أخذنا بالمنظور الجغرافى حيث يسكن العرب الجزء الشمالى من الأراضى الافريقية وتبلغ مساحة مواطنهم فى تلك القارة أكبر من مساحتها فى آسيا ووصل تعدادهم فى افريقيا الى أكثر من ثلث سكانها وبالتالى فلا يوجد فى افريقيا كلها شعب يدانيهم فى العدد أو يشغل من أرضها قدر ما يشغلونه . ولعل هذه الحقائق الجغرافية والسياسية والديموجرافية والحضارية تقف حائلا أمام دعاة الانفصال من يحرصون على فصم الروابط العربية الافريقية ولذلك لم يبق أمامهم سوى التذرع بالصحراء الكبرى باعتبارها فاصلا بين ما أسموه أفريقيا شمال الصحراء وافريقيا جنوب الصحراء حيث شاعت فى كثير من الدراسات تسميات تدور حول ذلك التقسيم كالقول بافريقيا البيضاء أو افريقيا العربية أو المتوسطية مقابل افريقيا السوداء أو افريقيا الزنجية وقد استخدم الفرنسيون بصفة خاصة تلك التسميات بينما شاعت فى كتابات الانجليز تسميات أخرى تهدف الى التركيز على أن المقصود بافريقيا هى أفريقيا شمال الصحراء وافريقيا جنوب الصحراء حيث شاعت فى كثير من من القارة الافريقية ! ومن المفارقات التى نوردها فى ذلك الصدد أيضا ان افريقيا جنوب الصحراء لم تسلم بدورها من التقسيم اذ يقتطع منها عادة جمهورية جنوب افريقيا التى يطلق عليها اسم افريقيا ذات السيادة البيضاء. وبالاضافة الى ذلك فكثيرا ما تبرز أمامنا مصطلحات عديدة تعتمد اللغة الأجنبية أساسا للتقسيم كالقول مثلا بافريقيا الأنجلوفرنية أو أفريقيا الفرانكوفونية وغيرها وقد ظهرت تلك المصطلحات نتيجة للاستقطابات الثقافية التى تمت خلال عملية الاحتواء الحضارى التى قامت بها الدول الأوروبية والتى كانت تستهدف عزل المثقفين الافريقيين عن افريقيا العربية بنفس قدر عزل المثقفين العرب عن الثقافات الافريقية . وعلى الرغم من تلك التقسيمات العديدة التى تظهر واضحة فى كثير من الدراسات الا أن الحقائق التاريخية تؤكد بما لا يدعو مجالا للشك أن الصحراء الكبرى كانت وسيلة للترابط ولم تكن وسيلة للانفصال فى كثير من عصور التاريخ . ولعل مما يستلفت الانتباه أن معظم الدراسات التاريخية بما فى ذلك الدراسات الأجنبية قد أكدت على وحدة القارة الافريقية وذلك قبل أن تظهر فكرة تقسيم القارة بعد الحرب العالمية الثانية فقد عنى سلجمان فى عشرينيات ذلك القرن بتتبع الصلات الحضارية بين مصر الفرعونية وافريقيا جنوب الصحراء

وتبعه كثير من الدارسين الذين اهتموا بابراز تأثير الحضارة المصرية فى الحضارات التى ظهرت فى غرب افريقيا كما دلل بدفيل بالحقائق التاريخية والجغرافية على أن الصحراء الكبرى كانت عاملا هاما من عوامل الاتصال ولم تكن عاملا من عوامل الانفصال واستند فى ذلك على ما يتخللها من مسالك ومفاوز ودروب استخدمتها القوافل العربية التى نشطت فى تحركاتها من الشمال الافريقى الى ما وراء الصحراء الكبرى . على أن هذه النظرة التى وثقت الصلات بين افريقيا الشمالية وافريقيا جنوب الصحراء لم تلبث أن تضاءلت بعد الحرب العالمية الثانية واتجهت اتجاها معاكسا وكان ذلك رد فعل لما حدث من تلاحم بين حركات التحرر الوطنى والاستقلال فى العالمين العربى والافريقى فعلى سبيل المثال رفضت جامعة السوربون فى أوائل الخمسينات رسالة تقدم بها استاذ سنغالى يدعى انتاديوب للحصول على درجة علمية ذهب فيها الى أن حضارة مصر القديمة انما هى حضارة افريقية صميمة وجاء فى رسالته أيضا ان لغة الولوف فى السنغال لغة وثيقة الصلة باللغة المصرية القديمة . كما ظهرت انتقادات شديدة لما ذهب اليه فس نيجيرى يدعى لوكاس من وجود ألفاظ مصرية قديمة فى ديانة شعب اليوروبا على الرغم مما ذهب اليه للتدليل على صحة رأيه بايراد معجم للألفاظ المصرية التى لا تزال متداولة الى اليوم بين شعب اليوروبا . واذا كان هناك ثمة جدل كبير حول الصلات القديمة بين شمال الصحراء وجنوبها فان ذلك الجدل سوف ينهار حتما بعد تأسيس مدينة القيروان فى منتصف القرن الأول الهجرى لما سيترتب على ظهورها تعميق الصلات الاقتصادية والثقافية بين افريقيا شمال الصحراء وافريقيا جنوب الصحراء . وعلى الرغم من ذلك فان دعاة التقسيم يتجاهلون الحقائق التاريخية بل انهم قد يقعون فى تناقض صارخ حين يدعون أن افريقيا المتوسطية لم تقم بدور يذكر فى تاريخ القارة الافريقية باستثناء الجهود التى قامت بها بعض شعوب البحر المتوسط فى حركة الاستكشافات البحرية الكبرى وواضح أن تلك المقولة قد تجاهلت عن عمد ما قام به الشمال الافريقى من نقل المؤثرات العربية والاسلامية الثقافية والحضارية عبر الصحراء الكبرى الى غرب القارة الافريقية ودواخلها . وهناك من الدراسات التى حرصت أيضا على ايجاد انطباع فى ذهن قارئها عن سلبية الاتصالات بين العرب والأفارقة ومن ثم بالغت فى ترويج ما اسمته بالتجارة الصامتة Silent Trade التى كانت تقوم بين شمال الصحراء وما ورائها حيث خصصت لدعم تلك النظرية دراسات كثيرة .

وعلى الرغم من ضرورة التصدى لتلك الدعاوى الانفصالية الا انه ينبغى أن نشير هنا الى أن المنهج الموضوعى لا يفترض بطبيعة الحال أن تعالج افريقيا كوحدة تاريخية على اطلاقها كما لا يعترض فى نفس الوقت على تقسيم افريقيا ولكن بشرط أن يستفاد من ذلك التقسيم فى استخراج الأنماط الحضارية أو التاريخية أو الاقتصادية وبشرط الا يكون من وراء ذلك التقسيم هدف يرمى الى تمزيق القارة أو اضعاف الروابط بين أجزائها أو محاولات متعمدة لفصل العرب عن بقية القارة الافريقية .

ولعل مما يستلفت الانتباه أن فكرة تقسيم القارة وان كانت قد ظهرت فى أعقاب الحرب العالمية الثانية كما سبق أن أوضحنا الا انه لم يلبث ان عاد التركيز عليها خلال العقدين الأخيرين وكان ذلك رد فعل لسقوط الدعاوى الانفصالية على المستويات التاريخية والجغرافية والسياسية بعد أن أصبحت دول القارة الافريقية على التعامل فيما بينها على مستوى وحدة القارة وظهر ذلك واضحا فى تأسيس منظمة الوحدة الافريقية فى عام ١٩٦٣ كما برز أيضا على المستوى الأكاديمى الدولى حين تبنت هيئة اليونسكو فى عام ١٩٦٤ مشروعا لاعادة كتابة تاريخ افريقيا ركز فى خطته على ضرورة النظر الى افريقيا ككل وتجنب التمييز بين افريقيا شمال الصحراء وافريقيا جنوب الصحراء . ومما هو جدير بالاهتمام أن حرب اكتوبر ١٩٧٣ كان لها أثر كبير فيما يتعلق بتوثيق الروابط العربية الافريقية حيث عبرت افريقيا الصحراء نحو الشمال لتتداخل وتتلاحم مصيريا مع العرب وبالتالى اختفت الصحراء كفاصل أو كعازل سياسى بين افريقيا البيضاء وافريقيا السوداء ولذلك حين برز التعاون العربى الافريقى فى أعقاب تلك الحرب وخلال حقبة السبعينيات كان من الطبيعى أن يستغل أعداء ذلك التعاون الدعاوى الانفصالية للتشكيك فى الروابط العربية الافريقية حتى أن فلسفة الزنجية لم تلبث بدورها أن حادت عن طريقها فبعد أن كانت طريقا للاتحاد ضد الاستعمار والامبريالية تحولت الى دعوى للتقسيم والتفرقة لخدمة المصالح الاستعمارية بعد أن وقع كثير من دعاتها تحت تأثير كتاب الغرب الذين روجوا مقولة جاء فيها أن تجارة العرب فى الرقيق كانت المعول الذى هدم افريقيا السوداء وهكذا انحرفت الزنجية عن مسارها فبينما كانت فى نشأتها تعد ثلاثينيات ذلك القرن ردة فعل افريقية ضد الاستعمار الأوربى وتجارة الرقيق الاطلنطية أصبحت ردة

فعل لتجارة الرقيق العربية عبر الصحراء الكبرى والمحيط الهنـــدى بل أصبحت ردة فعل للوجود العربى فى افريقيا ولم تعد نظرة الافريقيين للعرب أكثر من كونهم عناصر أجنبية وفدت على افريقيا وأن العرب المسلمين ليس شأنهم أكثر من شأن الأوروبيين المسيحيين بل أن صورة العرب والاســلام أصبحت أكثر ارتباطا فى ذهن الافريقى بصورة العبودية والاستغلال وتجارة الرقيق وفضلا عن ذلك فقد وجهت الأدبيات الزنجية الانتقـــادات اللاذعة لمسئولية العرب عن المصير التاريخى السيء الذى وصلت اليه القارة الافريقية أو بمعنى أوضح مسئولية التجريد السياسى والاقتصـــادى لامبراطوريات افريقية كبيرة . وقد يكون حقيقة أن تلك المواقف السلبية لا تعكس كل الضمير الافريقى ازاء العرب الا أنه لا ينبغى فى نفس الوقت اهمال ردود أفعـــال الصفوة الافريقية ضد كافة أشكال الهيمنة السياسية وكافة عمليات الاستيعاب الثقافى التى تعرضت لها القارة الافريقية حتى أنها تعتبر الاستعمار الأوربى وما تطلق عليه (الغزو العربى) وجهان لعملة واحدة .

ومع ذلك فليس مجالنا فى هذه الورقة الاشارة الى مختلف التجارب الطيبة أو المؤسفة التى عاشتها الشعوب الافريقية خلال اتصالاتها بالعرب أو المسلمين على مر القرون ولكننا سنقتصر فى هذا المجال على ابراز بعض أوجه المقارنة بين العلاقات العربية الافريقية والعلاقات الأوربية الافريقية فبينما تكشف لنا الدراسات التاريخية المتأنية للعلاقات العربية الافريقيـــة عن ظهور حضارة عربية افريقية واضحة المعالم تؤكد لنا الحقائق التاريخية ما اتسمت به العلاقات الأوربية الافريقية من شتى أنواع الاستغلال المادى والبشرى .

وعلى الرغم من أننا لا نتمشى مع كثير من الدراسات العربية التى بالغت فى عروبة الكينونات التى أقامها العرب فى افريقيا وخاصة فى ســـاحلها الشرقى فى الفترة السابقة للعصر الاستعمارى الا أن الأمر الذى لا شـــك فيه أن القارة الافريقية شهدت ازدهارا حضاريا فى الفترة التى ســـبقت اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح وسيطرتهم على ســـواحل شرق افريقيا وترتب على الاستعمار البرتغالى شيوع التخلف والركـــود الاقتصادى فى القارة الافريقية ولعل مما يسترعى الانتباه أن حالة التخلف والركود التى تعرضت لها القارة الافريقية كانت انعكاسا لمـــا حدث فى

المنطقة العربية ذاتها بفعل ذلك المؤثر نفسه ونعنى به الاستعمار البرتغالى ولعل هذه الملاحظة يمكن أن نجد لها ما يدعمها بعد ذلك فى القرن التاسع عشر حين نجد أن حركات اليقظة التى حدثت فى العالم العربى قد أحدثت انعكاساتها على بعض المناطق الافريقية وهكذا يمكن القول بصفة عامة ان المصير التاريخى بين العالم العربى والافريقى وصل فى كثير من الأحيان الى درجة التطابق الذى بلغ أكثر وضوحا حين تكالبت القوى الاستعمارية والامبريالية على العالمين العربى والافريقى منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر كما يمكننا أيضا ملاحظة التلاحم العربى الافريقى فى المواجهة التى قامت ضد الاستعمار البرتغالى لشرق افريقيا خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر وضد القوى الامبريالية فى كثير من الأقطار الافريقية منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر . ولعل ذلك التلاحم يوضح لنا الدوافع التى دفعت بالقوى الامبريالية الى ادراك أهمية تفكيك الروابط بين الشريقين وهو أمر بدى واضحا فى تفكيك بريطانيا والمانيا للسلطنة العربية الافريقية فى زنجبار وفيما اتجهت اليه القوى الاستعمارية وبخاصة بريطانيا لتجريد مصر من المناطق التى امتدت اليها فى القارة الافريقية وعلى الرغم من الدور الحضارى الذى قامت به كل من مصر وزنجبار فى المناطق التى امتدت اليها حتى أن دولة الكونغو الحرة على سبيل المثال قد اعتمدت فى بناء هيكلها الاقتصادى على التنظيمات الاقتصادية التى أقامها التجار العرب فى أعالى الكونغو بعد ان عصفت بالوجود العربى فى تلك الانحاء الا أن الكتابات الاستعمارية تحاملت على دور العرب الحضارى والاقتصادى باعتباره نمطا استعماريا قامت به القوى العربية ضد الشعوب الافريقية ولا نجد أمامنا ابلغ رد على تلك الاتهامات أكثر مما ذكره جرينفيل وزير الدولة فى حكومة باتريس لومومبا الذى كتب يقول « لقد زور البلجيكيون كل شىء فى الكونغو فليست مدينة ستانلى فيل سوى مدينة تيبوتيب التى أقامها ذلك التاجر العربى قبل قدوم الرحالة ستانلى وليس العرب — كما قالوا لنا — تجار رقيق وانما هم تلك الموجة الانسانية التى اختلطت بنا وصاهرتنا وتركوا لنا على أرضنا دماءهم والبلجيكيون يحصدونهم بالأسلحة الحديثة وليس أعز علينا شىء سوى هذا الدم العربى الذى سال فى الماضى كما سال ويسال دمنا الآن فى بلادنا على أيدى نفس أعداء العرب فى القرن الماضى » وقد تصل الخطورة بالنسبة لمصر الى محاولة بعض المصادر تبرير التوسع

المصرى فى افريقيا باعتبار أن مصر فى توسعها هذا لم تكن مسئولة تاريخيا بسبب خضوعها للحكم التركى وهو تبرير خطير فى تقديرنا لأن الأخذ به معناه التجاهل التام لمسئولية مصر الحضارية فى القارة الافريقية .

ولا تكتفى المصادر الاستعمارية بالتركيز على ما اسمته بالغزو العربى لافريقيا فى القرن التاسع عشر بل ينسحب ذلك أيضا على علاقة العرب بالقارة الافريقية فى الفترة السابقة للاستعمار الأوروبى وتهدف هذه المصادر للوصول الى نتيجة مؤداها أن العرب والمسلمين دخلاء على افريقيا وعلى ذلك فليس هناك فرق بين (استعمار عربى) واستعمار غربى الا أن الأخير جاء بمدنية متفوقة وحضارة متقدمة ولعل من اليسير الرد على هذه المقولات أنه بينما كانت الحضارة العربية مصدر اشعاع فكرى للشعوب الافريقية التى احتكت بها فان النهضة الأوربية الحديثة قامت على اضعاف المقومات الافريقية ويكفى تدليلا على ذلك بتلك الملايين من الأفارقة الذين انتزعوا من بلادهم للعمل فى مزارع العالم الجديد خلال الفترة من القرن السادس عشر حتى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى . ومع ذلك فان المصادر الاستعمارية تتغاضى عن تلك الحقائق وتركز على دور أوربا فى تحضير القارة الافريقية واكتشافها برغم أن أوربا لم تستطع أن تصل الى دواخل القارة الا باعتمادها على سجلات العرب ومدوناتهم والكثير من تلك المصنفات ترجم الى اللغات الأوروبية المختلفة كما اعترف رواد حركة الكشف والارتياد الأوربى بالدور الرائد الذى قام به العرب فى التعرف على الأجزاء الداخلية من افريقيا ولم يجرؤ واحد من أولئك المستكشفين على التوغل فى القارة الافريقية الا بالاعتماد على طرق القوافل العربية وعلى المراكز التجارية والحضارية التى انشأها العرب على طول خطوط القوافل كما استعان كثير منهم أيضا بالأدلاء العرب فى عملياتهم الاستكشافية التى لم تكن فى حقيقتها كشفا وانما تسجيلا علميا لمناطق كانت معروفة — بطبيعة الحال — لدى سكانها من العرب والافريقيين . وليس من شك فى أن الدراسة الموضوعية تستطيع بسهولة أن تدفع جانبا مما تعطيه المصادر الاستعمارية من انطباع مؤداه أن النشاط العربى فى افريقيا كان بمثابة غزو استعمارى يستهدف فى الدرجة الأولى عمليات التسلط والاستغلال ولا تزال تلك المقولات تستخدم حتى الوقت الحاضر ضمن الجهود الرامية الى فصم الروابط العربية الافريقية

كالدعوى على سبيل المثال أن العرب يمثلون استعمارا جديدا فى افريقيا أو أن هدفهم لا يزال كما كان عليه الحال قديما وهو نشر الاسلام ومحاربة الأديان الأخرى بل قد يصل الأمر الى تشكيك القيادات الافريقية المسيحية وخاصة فى الدول الافريقية التى تسكنها مجموعات اسلامية كبيرة العدد ولعل ما يدحض تلك المقولات تشابه المصير العربى مع المصير الافريقى خاصة فيما يتعلق بالسمات المشتركة فى نضال العرب والافريقيين لمواجهة قوى الاستعمار القديم والجديد وحاجة كل فريق الى دعم ومساندة الفريق الآخر سياسيا واقتصاديا ولعل مما ينفى فكرة الاستعمار عن العرب أنه لم تكن لديهم فى حقيقة الأمر تلك النظرة فى علاقتهم بالشعوب الافريقية التى اختلطوا بها فعلى امتداد عدة قرون من تاريخ العرب فى افريقيا امتزجت الثقافة العربية بالثقافات المتعددة للشعوب الافريقية أو فيما يطلق عليه علماء الاجتماع التداخل الحضارى بين الثقافات المتعددة Acculturation وهو أمر أسفر عن ظهور ثقافة عربية افريقية واضحة المعالم بعد أن وجدت كثير من الشعوب الافريقية فى ذلك المزيج المركب أساسا لبناء مستقبلها السياسى والاجتماعى هذا فضلا عن توغل العرب واندماجهم فى الشعوب الافريقية وما ترتب على ذلك من ظهور جنس يجمع الكثير من الصفات العربية والافريقية بل أن اللغات الافريقية نفسها أصبحت تجمع فى مفرداتها وتراكيبها بين العربية والافريقية كما نشأت حضارة عربية اسلامية لها طابع افريقى وكان لأثر هذه المشاركة جانب ايجابى وهو ذلك الميراث الثقافى والدينى الذى منحه العرب للافارقة وامتزاجه مع ما كان قد تهيأ لهم من حضارة وثقافة خاصة بهم على امتداد التاريخ . وقد يكون من المفيد فى هذا المجال التركيز على أن العرب لم يفرضوا على الافريقيين ثقافتهم كما فعل المستعمرون وانما حافظوا على الثقافات الافريقية كما لم يقم العرب بهدم المؤسسات المحلية عند دخولهم بل أن تلك المؤسسات اتخذت أشكالا جديدة وبدأ السكان الأصليون فى تكييف أنفسهم على التعاليم الجديدة وطبقا لما يذكره بعض الدارسين أن ما حدث فى الحقيقة هو أنه عندما تقابل العربى مع الافريقى فى موطنه حدث اندماج صحى وليس نوعا من الامتصاص أو القمع التعسفى غير المناسب ولعل ما يؤكد لنا تلك الحقيقة بقاء اللغات واللهجات الافريقية الى جانب اللغة العربية التى احتفظت بمركزها كلغة للثقافة والتعامل ولا ينفى ذلك أن كثيرا من المفردات العربية دخلت اللغات

واللهجات الافريقية أو أن هذه اللغات قد دونت بالحرف العربى فان هـذا التداخل انما يتضمن دليلا على التفاعل والامتزاج الثقافى وفى ذلك الصدد يؤكد بومان وزميله وشرمان فى كتابهما افريقيا وحضاراتها التدوين بالكتابة العربية بعد دليلا على الذكاء الفطرى والطاقة العقلية عند الشعوب السوداء فى القارة الافريقية بل أن اللغة العربية فى عملية التمازج هذه لم تجد بدا من أن تقتبس بعض المفردات من تلك اللغات ولم يكن قيام الافريقيين بتدوين عدد من لغاتهم المحلية بالابجدية العربية المأثرة الوحيدة التى خلفوها لنا فى الفترة السابقة للاستعمار كما لم تكن النتيجة الوحيدة التى أسفرت عن وضوح المؤثرات العربية بل شارك الافريقيون فى الدراسات العربية الاسـلامية وازدهرت مواطن كثيرة لها فى بلادهم ونبغ من الأفارقة الكثيرون فى الفقـه والأدب والتاريخ ومختلف العلوم الاسلامية ويؤكد لنا ذلك آلاف المخطوطات التى نقل الأوروبيون الكثير منها الى مكتبات بلادهم ولعل مما تجدر الاشارة اليه بصدد ذلك أن هناك شعوب كثيرة قد أسهمت فى بناء صرح الثقـافة العربية الاسلامية وكان للشعوب الافريقية دور فى ذلك أيضا وقد تكـون اضافاتهم دون اضافات غيرهم ولكن هذا التصور يرجع فى تقديرنا الى أن الثقافة العربية وصلتهم متأخرا ومن ثم اقتصر دورهم فى المحافظة عليهـا والعمل على نشرها فى الوقت الذى كانت تواجه فيه خطر التدهور والانهيار منذ أوائل القرن السادس عشر الميلادى ومما يسترعى الانتباه أيضا أن العرب تفاعلوا ثقافيا وسلاليا مع الأفارقة وتم ذلك التفاعل عن تراض واقتناع اذ لم يعرف عن العرب ممارسة العنصرية أو كراهيتهم أو اضطهادهم للافريقيين وذلك على عكس المستعمرين الأوربيين الذين عملوا على فرض ثقافتهـم ولغتهم على الافريقيين ولم يندمجوا معهم وانما على العكس من ذلك كونوا مجتمعات بيضاء متعالية تعزل الافريقيين وتحول بينهم وبين ممارسة حقوقهم المدنية والسياسية والاقتصادية كما يظهر ذلك واضحا فى جنوب افريقيـة وكينيا وروديسيا وغيرها . وينبغى الاشارة هنا أيضا الى أن الاستعمار الأوربى وجد فى الثقافة العربية والاسلامية أكبر معوق له لنشر نفوذه فى القارة الافريقية ولعل ذلك مما دفع بانجلترا الى فصل جنوب السودان عن شماله وكذلك ما عمدت اليه فرنسا من اتخاذ أساليب التعليم والتبشـير أدوات لنسف جسور العروبة والاسلام فى المناطق التى آلت اليها فى شمال وغرب افريقيا وأكثر من ذلك عمد كثير من الباحثين الاوروبيين فى فـروع

الانثروبولوجيا والاستشراق والاستغراق الى دراسة المجتمعات الافريقية توطئة لخدمة الأهداف الاستعمارية متخذين من التبشير والتغريب والتحديث عوامل لفصل شخصية الافريقيين عن ماضيهم وتراثهم تمهيدا لاستغلالهم ماديا وبشريا والهيمنة عليهم سياسيا وفكريا وقد يكون حقيقة أن جهود أولئك العلماء والذى يبرز من بينهم ليفى بروفنســـال ورينيه باسيه وهويداس وترمنجهام وغيرهم كثيرون قد أدت خدمة للشعوب الافريقية وذلك بما أحيت ما اندرس من التراث الافريقى وبما تم تجميعه وتدوينه من تراث متناقل الا أنه مع ذلك لا ينبغى أن تبعدنا تلك الانجازات عما استهدفه من مسخ الثقافة الافريقية وتشويه معالمها بالاضافة الى ما تعهدته من تشويه تاريخ العرب والاسلام فى افريقيا ومن ذلك مثلا ما عمدت اليه بعض المصادر من التاكيد بأن الأثنى عشر قرنا من الصلات بين العرب والأفارقة كانت غير متماثلة اذ اخترق العرب افريقيا جنوب الصحراء واستعبدوا سكانها وفرضوا دينهم وثقافتهم فى الوقت الذى لم يقم فيه الأفارقة باختراق مضاد للمنطقة العربية وكذلك الحال بالنسبة لشرق أفريقيا التى سيطر عليها العرب وانشأوا بها عدة مستعمرات عربية وذلك على نحو ما ذهب اليه السير ريجنالد كوبلاند فى كتابه الذى أطلق عليه شرق افريقيا وغزاتها حيث اعتبر العرب عنصرا من العناصر الغازية أو المستعمرة ولعل ذلك مما دفع بعض المهتمين بالعلاقات العربية الافريقية الى محاولة تعديل تلك الصورة بالدعوة الى التركيز على دور الأفارقة فى العالم العربى سواء بعلاقتهم بالجزيرة العربية قبل الاســـلام أو بتاريخ الزنوج فى البلاد العربية واستخدامهم فى الجيش العبـــاسى والثورات التى قاموا بها والتى تبرز من بينها ثورة الزنج بين عامى ٨٦٩ و٨٧١ والتى نجحوا بها فى السيطرة على البصرة وجنوب العراق عـــدة سنوات .

على أن الأمور الأشد خطورة ما تهدف اليه الدعاوى الاستعمارية من خلق انطباع لدى الأفارقة بأن الاسلام انتشر بينهم بحد السيف وواضح أن تلك الدعاوى كانت تستهدف فى الدرجة الأولى الى التمهيد لدور المستعمر وذلك بترسيخ القناعات التاريخية لدى الافريقيين بأن المجتمعات الافريقية مجتمعات مستكينة خاضعة والحقيقة أن الاسلام انتشر فى افريقيا بصـــفة عامة انتشارا سلميا وحدث ذلك عن طريق التجار سواء من العرب أو البربر

ولم يلبث أن تولى نشر الاسلام الافريقيون أنفسهم وفضلا عن ذلك فان الاسلام لم ينتشر فى طبقة اجتماعية واحدة وانما جاء انتشاره شاملا لكل طبقات المجتمع بمعنى أنه لم يكن دينا للطبقة المسيطرة وبالتالى يبقى ببقائها ويذهب بذهابها وبالاضافة الى ذلك تذهب المصادر الاستعمارية ومن حذا حذوها الى ترسيخ قناعات لدى الافريقيين بأن العرب والمسلمين هم الذين خربوا عمران افريقيا ودولها ومن الأمثلة التى تساق دائما بصدد ذلك اجتياح المرابطين لدولة غانا ١٠٦٧ م وغزو السعديين لدولة الاسكيين بسنغاى فى عام ١٥٩١ م والحقيقة التى لا مراء فيها أن الاسلام كان قد انتشر فى غانا انتشارا سلميا قبل أن يجتاحها المرابطون ويؤكد ذلك أن المؤثرات الثقافية العربية والاسلامية كانت واضحة فى مملكة غانا الوثنية قبل سقوطها اذ كان فى عاصمتها كمبى كما يروى لنا البكرى أحياء ومساجد خاصة بالمسلمين حيث اعتاد التجار من الشمال الافريقى أن يجتمعوا فى تلك الأحياء بل وتشير بعض المصادر العربية الى أن التجار العرب أخذوا يحتلون مراكز عليا فى مملكة غانا كالوزراء والكتاب . أما ما تركز عليه بعض الدراسات من اعتبار غزوة المنصور الذهبى لمملكة سنغى السبب فى تدهور أوضاع غرب افريقيا حضاريا واقتصاديا فان تلك الأوضاع كانت قد تدهورت بالفعل قبل حدوث تلك الغزوة وذلك بسبب ما نجم عن اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح من تدهور الأوضاع الاقتصادية فى منطقة البحر المتوسط ومن ثم فقدت منطقة غرب افريقيا ما كانت تعتمد عليه من مقومات اقتصادية وثقافية كانت تفد اليها من الشمال وبذلك لم تكن الغزو المغربية الا بمثابة اسدال الستار على تلك الحقيقة المزدهرة التى عاشتها المنطقة من قبل . وقد يكون من المناسب أن أشير هنا الى ما واجهته شخصيا من اعتراضات أحد الأساتذة الافريقيين الذين وضح تأثرهم بالمنهج الاستعمارى أو الشيفونية الافريقية على بعض الآراء التى أولعت بها فيما يتعلق ببعض تلك الموضوعات فى حلقة دراسية عقدت بداكار فى عام ١٩٨٤ وكانت خاصة بدراسة العلاقات بين اللغات الافريقية واللغة العربية حيث أصر على أن انتشار الاسلام فى أفريقيا كان فيه القضاء على التطور الطبيعى للاديان الافريقية التقليدية وأفقد الافريقيين شخصيتهم وفضلا عن ذلك فقد قضى المسلمون على الكثير من الممالك الافريقية التى كان من الممكن لها أن تتطور تطورا طبيعيا وقد يكون حقيقة أن انتشار الاسلام فى افريقيا قد قضى بالفعل على كثير من الديانات

الطبيعية ولكنه مهد فى نفس الوقت لظهور ديانة عالمية أعطت للافارقة الكثير وقد يكون حقيقة أيضا أن المسلمين قضوا على بعض الممالك الافريقية كما حدث فى اسقاط مملكة غانا الوثنية ولكن ذلك مهد الطريق لظهور ممالك اسلامية افريقية كانت أكثر حضارة وثراء من مملكة غانا اذ أنه رغم ما وصلت اليه تلك المملكة من ثراء ومن درجة عالية من التنظيم السياسى والاقتصادى والاجتماعى والعمرانى الا أنها لم تتعدى مع ذلك نطاق الاقليمية الضيقة والقبلية المحدودة ومن ثم كان لحركة المرابطين رغم ما صاحبها من عنف أثر كبير فى تقريب منطقة غرب افريقيا الى منطقة البحر المتوسط لكى تتأثر بها ثقافيا واقتصاديا وحضاريا كما أن الغزوة المغربية على سنغى لم تكن فى فى تقديرنا سوى محاولة بائسة لتوحيد القوى العربية والافريقية لمواجهة التحديات التى كانت متمثلة فى ذلك الوقت فى الضغوط الاسبانية والبرتغالية وذلك بالاستعانة بالموارد الافريقية فى تقوية الجهة العربية الافريقية ولا يعنى ذلك اغفالنا الاثار السلبية التى ترتبت على تلك الغزوة من الفوضى والاضطراب وعزل المنطقة عن الشمال الافريقى .

ولعل من أكثر الأمور اثارة ما تسعد اليه بعض الدراسات الاستعمارية من ترسيخ قناعات لدى الافريقيين بأن العرب هم الذين استعبدوا أجدادهم وقد اشتدت تلك الحملات ضد العرب فى السنوات الأخيرة فى الصحافة ووسائل الاعلام والأجهزة التى تعمل لحساب الشركات الاستغلالية بهدف النيل من التعاون العربى الافريقى ومن الأسف أن الباحثين العرب والأفارقة لم يتصدوا بجدية لتلك الحملات اذ لم تظهر دراسات موضوعية — عربية أو افريقية — تواجه تلك الاتهامات بل أصبحنا نجد من بين المثقفين العرب أو دعاة الزنجية من الأفارقة من أصبح يردد تلك المقولات كأن تجارة الرقيق والاسترقاق كانت حريمة العرب دون سواهم من البشر ولعله من نافلة القول الاشارة هنا الى أن الأوروبيين مارسوا تجارة الرقيق فى أفريقيا أكثر من أربعة قرون تعرضت القارة الافريقية خلالها لعملية استنزاف بشرى أدى الى اضعاف تماسكها مما سهل مهمة الحركة الامبريالية فى السيطرة عليها و ذا كانت الحقائق التاريخية تؤكد لنا أن كلا من العرب والاوروبيين عملوا فى تجارة الرقيق فان التساؤل هنا يكون فى كيفية معاملة الرقيق وفى مسئولية نزح تلك الأعداد الضخمة من مواطنها الأصلية لتعمل فى أرض الغربة على

اننا لا نعنى بذلك التساؤل أن نقف موقفا تبريريا أو اعتذاريا فيما يتعلق بتجارة العرب فى الرقيق وانما نعنى فى الدرجة الأولى ارجاع الأمور الى ظواهرها وأصولها الاجتماعية والاقتصادية فضلا عن ملابساتها التاريخية مع تسليمنا فى الوقت نفسه أن الاسترقاق هو الاسترقاق سواء صغر أم كبر حجمه وسواء حسنت أم ساءت أساليبه وان كان ذلك لا يمنعنا فى نفس الوقت من دحض ما روجته المصادر الاستعمارية من أن القطاع الجغرافى من العالم القديم كان بمثابة سوق كبير يحتاج الى أعداد ضخمة من الرقيق اذ أن هذه المصادر فى تقديرنا لم تفرق بين الرق فى العالم العربى والعالم الغربى فعلى حين اتخذ الأوروبيون والامريكيون من الرق نظاما اقتصاديا فانه كان يشكل عند العرب على الأغلب نظاما اجتماعيا كما انه ليس حقيقيا ما ذهبت اليه بعض الدراسات الاستعمارية من أن تجارة الرقيق كانت هى السمة التى اتصف بها النشاط الاقتصادى للعرب اذ أن سوق الرقيق فى العالم العربى كان محدودا وسهل التشبع اذا ما قورن بسوق لرقيق الغربى وفضلا عن ذلك فان الرجوع الى المصنفات العربية التى كتبت عن افريقيا يمكن بسهولة أن نتعرف على المنتجات الافريقية التى كان يقوم العرب بالاشتغال بها أو بالمبادلة عليها غير الرقيق وفضلا عن ذلك فقد تعمدت المصادر الاستعمارية التركيز على الجوانب السلبية فيما يتعلق بالتبادل التجارى بين العرب والافريقيين اذ أن مجىء السفن الشراعية من سواحل الخليج والجزيرة العربية الى سواحل شرق افريقيا لم يكن يجلب التجار والنخاسين فحسب وانما كان يجلب الرخاء الاقتصادى والازدهار الحضارى الذى ظهر فى تأسيس العديد من المدن والممالك والسلطنات العربية الافريقية على طول السواحل الشرقية الافريقية وهى التى أشاد بها الرحالة المسلمون والتى دهش لها البرتغاليون أنفسهم حين وفدوا الى تلك السواحل . كذلك نتج عن التجارة العربية عبر الصحراء الكبرى نشوء العديد من الممالك والحواضر الاسلاميةكشنقيط وتمبكتو وغانا ومالىوسنغىوكانم وبرنو وغيرها. وبينما كانت تجارة الرقيق العربية تقوم على جهود فردية فان تجارة الرقيق الاوروبية اعتمدت على تأسيس الشركات والمراكز التجارية وبناء القواعد العسكرية التى ضيقت الخناق على القارة وأصبحت تلك التجارة أشبه ما تكون بالموت الاسود الذى اجتاح أوربا فى القرن الرابع عشر الميلادى فقضى على ما يقرب من ثلث سكانها بل كانت تلك التجارة أسوأ لأن نتائجها

الاجتماعية ورواسبها النفسية كانت أقسى من ذلك الوباء الاسود الذى انقضى وانقضت معه آثاره . ولعل ما تجدر الاشارة اليه فى هذا المجال أن الدول الاستعمارية وعلى الأخص بريطانيا قد استغلت تجارة العرب فى الرقيق فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر لكى تتغلغل استعماريا فى القارة الافريقية بدعوى القضاء على تلك التجارة فى مصادرها الداخلية ومن ثم أخذ الرحالة الأوروبيون يهولون من تجارة العرب فى الرقيق بهدف اثارة الرأى العام الأوروبى وكان من نتيجة ذلك أن مؤتمر برلين ١٨٨٤/١٨٨٥ الذى عقد اساسا لتقسيم القارة الافريقية بين الدول الاستعمارية قد أشار فى ميثاقه الى مسئولية الدول الأوروبية فى حمل رسالة الحضـــارة الى افريقيا واثنى على جهود جمعيات التبشير والغاء الرق وان كانت الحقيقة التى لا مراء فيها أن المستعمرين ابطلوا الرق الفردى لكى يستبدلوا به رقا جماعيا اذ أن استغلال الافريقيين فى المزارع والمناجم والغابات تحت وطأة العمل الاجبارى كان هو الاسترقاق بعينه وليست وقائع ارهاب المطاط الأحمر عند بداية الاستعمار البلجيكى للكونغو بخافية عن أذهان الكثير من الباحثين ولعل ذلك مما دفع بعض المنصفين منهم نذكر من بينهم بازل وافيدسون الى وصف ذلك الخطر الاستغلالى باعتباره رقا حديثا وبذلك لم تكن الأساليب الاستعمارية لتختلف عن الرق التقليدى الا فى وسائلها وان كانت أشد منها اســـتغلالا وقســـوة .

نستخلص مما سبق أن الدراسات الاستعمارية أو الافريقية المتأثرة بالمنهج الاستعمارى أو المغالية فى نزعتها القومية كرست مفاهيمها وتصوراتها ومناهجها للتباعد بين العرب والأفارقة وجعلت ذلك التباعد يرتكز على رواسب نفسية حشدت لها ما يدعمها من الأدلة التاريخية التى استمدتها من الصـــورة المشوهة التى رسمها المستعمر عن تاريخ العرب فى افريقيا وقد عمدت تلك الدراسات التى ترسيخ قناعات لدى الافريقيين بأهمية الوجود الاستعمارى كما اتجهت الى التقليل من أهمية التراث العربى فى افريقية واســـتبدلته بالروايات الشفهية المتناقلة على نحو ما ذهب اليه كل من بول مارثى ودى لافوس فى غرب افريقيا . وعلى الرغم مما كان متوقعا أن تتغير تلك المفاهيم مع رحيل المستعمر وبالتالى تتوثق الروابط بين العرب والأفارقة اذ بنا نفاجأ بأن التباعد يزداد اتساعا اذ أنه مع استقلال الدول الافريقية حلت النخبة التى ارتبطت اقتصاديا وثقافيا بالاستعمار الجديد فحافظت على ســـياسة

الاستعمار القديم فى أزياء من الوطنية الضيقة بل أصبحنا نجد من بعض الأفارقة من يقف موقفا متباعدا من العرب حيث تعرض هؤلاء لتأثيرات ثقافية بلغت من قوتها درجة كادت تطمس معها المؤثرا تالثقافية العربية والاسلامية وكان ذلك حصادا لجهود المبشرين فى التنشئة السياسية والتعليمية لأجيال من الأفارقة الذين أشربوا كراهية الاسلام والثقافة العربية ولذلك فان الأمر يقتضى فى تقديرنا اعادة دراسة الحقبة الاستعمارية ومراجعة بعض المفاهيم السائدة التى أصبح يرددها كثير من الباحثين عن دور المستعمر فى تنصير المجتمعات الافريقية أو رفع مستواها الثقافى فعلى سبيل المثال لم يكن هدف المستعمر من التعليم رفع المستوى الثقافى بقدر ما كان يهدف الى نشر لغته أو اعداد الكوادر التى يحتاج اليها فى ادارته الاستعمارية ومن ناحية أخرى فلابد من تكثيف الجهود من أجل حوار عربى أفريقى يهدف الى اعادة كتابة تاريخ العرب فى افريقيا برؤية موضوعية وذلك فى اطار الظروف الاقتصادية والتاريخية والاجتماعية . ولما كانت المادة المدونة الوحيدة التى سجلت للتاريخ الافريقى قبل المرحلة الاستعمارية هى المخطوطات التى دونها العرب والأفارقة سواء باللغة العربية أو باللغات الافريقية المدونة بالأحرف العربية لذلك فقد يكون من الأهمية العناية بحصر ذلك التراث الذى هو ملك مشترك للعرب والأفارقة على السواء على انه ينبغى أن نكون فى حوارنا أكثر تفهما للشخصية الافريقية التى قد تتجه فى بعض الأحيان الى ردود فعل مضادة لتحقيق ذاتيتها بعد استعادة سيادتها السياسية . ورغم الصورة القاتمة التى عرضنا لها فى بعض الكتابات الافريقية الا أنه مما يدعو للتفاؤل ظهور صفوة افريقية أصبحت تدعو للاعتزاز بالتراث الثقافى العربى باعتباره تراثا افريقيا وذلك لدحض ما كان يحرص المستعمر على ترويجه من أن الافريقيين عاشوا خلال العصور السابقة للاستعمار هملا لا تاريخ ولا ثقافة لهم .